

الحلقة الثالثة والأربعون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. مازلنا ندرس سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

تابع سليمان الحكيم في اللقاء الماضي الحديث عن قراراته العملية. فتكلم عن ضرورة الاستفادة من الفرص المتاحة أمامنا بالرغم من عدم معرفتنا للمستقبل. وقال أن أجمل شيء في الحياة هو النور، وأن يتمتع الإنسان بهبة البصر. ودعانا للتوازن في الحكم على أيامنا، فهي ليست جميعها مرّة أو حلوة.

كثيراً ما ينظر الناس إلى فترة الشباب أنها فترة التمتع بالحياة، والانغماس في الشر. ويقدمون الأعذار لأولئك الشباب الذين يبتعدون عن جادة الصواب، ويسعون لتلبية أهوائهم الفاسدة وشهواتهم الجسدية. لكن هل هذا صحيح بنظر الله وحتى بنظر الإنسان المهذب؟ كتب سليمان الحكيم قائلاً: « افرح أيها الشاب في حدثك، وليمتّع قلبك في أيام شبابك، واتبع أهواء قلبك، وكل ما تشهد عيناك. ولكن اعلم أنه بسبب هذه الأمور كلها يأتي الله بك إلى كرسي القضاء. أو بتعبير آخر: إلى الدينونة» (الجامعة ١١:٩ تفسيرية).

أراد الحكيم القول هنا: صحيح أن على الشاب أن يفرح بشبابه، وأن يمتّع قلبه. لكن عليه أن يحذر السير في طريق الشر والفساد، وأن يلبي أهواء الجسد وشهواته الباطلة. وحذّره أنه إن سلك بحسب هذه الأهواء الفاسدة، فهو سيواجه في المستقبل دينونة الله وقضاءه. إن الشاب كثيراً ما يندفع بشبابه، ويزهو مفتخراً بقوّته، ويصم أذنيه عن سماع كلمات النصيح والإرشاد، وهكذا يسقط سريعاً في طريق الشر وشهوات الجسد الفاسدة. لكن على الشاب أن يعلم يقيناً أن كل ما يقوم به من أعمال سيحاسب عليه أمام الله، وأن لا شيء يمضي بدون حساب وعقاب.

إن فترة الشباب هي فترة جميلة، إذا استغلّها الشاب لكي ينمي معرفته ومواهبه، ويؤسس لنفسه مستقبلاً وطيداً. ويستفيد من القوة التي منحها إياها الله، لكي يبني جسماً صحيحاً معافى، فيضع قوّته مثلاً في الألعاب الرياضية. وكما يقول المثل: العقل السليم في الجسم السليم.

هل تعلم مستمعي أن كل ما تفعله أثناء شبابك سيؤثر على مستقبل حياتك؟ لأن كل ما يزرعه الإنسان فيأياه يحصد أيضاً. فإن زرعت أمراً جيداً، ستجده عندما تصبح رجلاً، وحتى إلى أن تغدو شيخاً. وإن زرعت أمراً فاسداً، فستحصده في جسدك في المستقبل أيضاً. فما يفعله الإنسان في شبابه له أهميته. وهذا ينطبق بشكل واضح على العادات التي نتعودها أثناء الشباب. فإن تعودنا عادات بناء مفيدة، فستبقى هذه العادات معنا، وتقيدنا في حياتنا عندما نكبر. لكن إن تعودنا عادات فاسدة، فسنجد أنها ستهدم مستقبلنا، ويصبح من الصعب علينا التخلص منها.

ولهذا عاد سليمان الحكيم وكتب قائلاً: « فأزل الغم من صدرك، أي من قلبك، واقص الشر عن جسدك، لأن الحداثة والشباب باطلان » (الجامعة ١٠:١١ تفسيرية). يدعو الحكيم هنا الشاب لكي يُقبل على الحياة بكل حيوية ونشاط، وأن يبعد الغم أي الكآبة والتشاؤم من قلبه. لكنه طلب منه في نفس الوقت أن يُقصي الشر أو يبعده عن جسده، لأن للشر نتائج وخيمة قد لا يدركها الشاب، أثناء شبابه. لأن الحداثة والشباب يخدعانه، ويحاولان جرّه لتلبية أهواء وشهوات الجسد الفاسدة. مع العلم أن الحداثة والشباب باطلان.

فماذا قصد الحكيم بهذا القول أن الحداثة والشباب باطلان؟ أراد تحذير الشباب من الانجرار وراء عواطفهم وأهوائهم الشبابية، لأنها تخدعهم وتقودهم إلى عادات فاسدة وسلوك باطل، لا يؤديان إلى أية نتيجة صالحة أو ثمر بناء لمستقبلهم. لهذا اعتبر أن الحداثة والشباب باطلان.

أجل مستمعي إن الحداثة والشباب باطلان. لهذا لم يكن غريباً أن ينصح الرسول بولس رسول المسيحية الأول تيموثاوس الشاب قائلاً: «أما الشهوات الشبابية فاهرب منها واتبع البر والإيمان والمحبة والسلام مع الذين يدعون الرب من قلب نقي» (٢تيموثاوس ٢:٢٢). لقد دعا الرسول بولس الشاب لكي يهرب من الشهوات الشبابية، تماماً كما دعا سليمان الحكيم قديماً الشاب لكي يُقصي أو يبعد الشر عن جسده. إن إبعاد الشر عن الجسد يكون بأن يهرب الشاب من الشهوات والأهواء الجسدية الفاسدة، لأنها قوية جداً ولا يجب مراعاتها أو الانخداع بها.

فإذا أردت مستمعي عدم السقوط والانخداع بشهوات وأهواء الجسد، عليك فقط أن تهرب منها، وأن لا تسمح لها بأن تتغلغل إلى فكري أولاً. لأن السماح لهذه الشهوات بأن تُفسد فكري، سيقودك حتماً إلى الانجرار وراءها. لأن أي عمل يقوم به الإنسان يبدأ

في الفكر أولاً. لكن الهروب من الشهوات الشبابية لوحده لا يكفي، إذ على الشاب أن يملأ فكره بكل ما هو إيجابي وصالح وبناء. أي كما قال الرسول بولس: أن يتبع البر أي الصلاح، والإيمان، والمحبة، والسلام. فالفكر يجب أن يبقى مشغولاً بأمر ما، لكي يقود الشاب إلى ما هو صالح ومفيد.

لعل السؤال الآن: هل يستطيع الشاب أن يبعد الشر عن جسده أو يهرب من الشهوات الشبابية وأن يتبع الصلاح والإيمان والمحبة والسلام؟ للجواب نقول: إن الإنسان لوحده ليس بمقدوره أن يقوم بمثل كل هذه الأمور، بل هو بحاجة إلى قوة الله المغيرة لحياته. إن الله تعالى وهو عالم ضعف الإنسان وعبوديته للخطيئة، أرسل المخلص المسيح لكي ينقذه وليحرره وليهبه القوة الروحية، حتى يستطيع أن يغلب الشر والشهوات، ويحل مكانها الصفات الإيجابية المفيدة. فهل تراك تؤمن مستمعي بهذا المخلص الفريد؟ وهكذا تقهر الشر وتملأ حياتك بالمزايا الحسنة.